المحور الثالث: النظريات الجيوسياسية – الجزء 02

ثالثا: المدرسة الفرنسية. إذا كانت الجيوبوليتيك الألمانية قائمة في الأساس على الدراسات الداروينية التي تعتبر الدولة كائنا عضويا، والجيوبوليتيك الأنغلوساكسونية التي اهتمت في الاساس بالعلاقة بين البر والبحر، فإن الميزة الأساسية للمدرسة الفرنسية في هذا المجال، هو اعتبار جل الانتاج الذي جاء به منظروها بمثابة رد فعل فيوجه التنظير الألماني الذي اعتبر خطرا على وجود فرنسا وبقائها. لذلك جاءت معظم كتابات المدرسة الفرنسية في هذا المسعى الدفاعي، بحكم أن فرنسا لمتكن ترغب في تغيير الواقع الجيوبوليتيكي الذي عرفته بعد نهاية الحرب العالمية الأولى والثانية عكس ألمانيا. ولهذا نجد أن الفرنسيين الذي تبنوا الطرح الذي جاء راتزل وأتباع المدرسة الألمانية كانوا في الغالب خارج أسوار الجامعة الفرنسية. في حين ارتكز تحليل الباحثين الفرنسيين للواقع الجيوبوليتيكي بتبني نظرة شمولية للفضاء. ومن بينهم نجد أندريه شيرادام وبول فيدال دو لابلاش، وايف لاكوست.

1. أندريه شيرادام: استندت كتاباته إلى مواجهة الطموحات الألمانية في أوروبا الوسطى التي كانت تستند إلى حركية الجنسيات المختلفة في الإمبراطورية النمساوية المجرية. ففي كتابه "ألمانيا وفرنسا والقضية النمساوية" سلط أندريه شيرادام الضوء على المخاطر التي قد تتعرض لها فرنسا في حال تمكنت ألمانيا من تقطيع اوصال الامبراطورية النمساوية المجرية، حيث كان يعتقد ان هذه الأخيرة يجب أن تكون حاجزا قادرا على قطع الطريق أمام المشروع الألماني القائم على تقسيم مناطق النفوذ بين قوى كبرى في العالم، لذلك كان يسعى للحفاظ على أن تبقى النمسا موحدة، بحيث يكون للقوميات غير الألمانية وزن كبير، ولتجسيد ذلك اقترح قيام تحالف يجمع بين كل من فرنسا وروسيا وأنجلترا.

من جانب آخر نبه شيرادام على أن أي سلام قائم على التسوية مع ألمانيا من دون أن يتم من خلالها تفكيك الآلة الحربية الألمانية سيكون له أثر عكسي، بحيث يكرس الهيمنة الألمانية على العالم من البلقان إلى الخليج العربي الفارسي. لذلك يعتقد شيرادام على أن أكبر حليف لسياسة الهيمنة الألمانية هو السيسة المسالمة المتبعة من قبل الحلفاء عشية الحرب العالمية الأولى والثانية. وهو ما يفسر

دعوته إلى محاولة إقناع الأمريكيين خلال تواجده بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1942 بالإنخراط في الحرب العالمية الثانية المشتعلة آنذاك.

ومن الأفكار الرئيسية التي قدمها أندريه شيرادام، ما يلي:

أ. أن الدولة الألمانية رسمت منذ عام 1895 خط للهيمنة على القارة الأوروبية ثم على العالم أجمع، لذلك فإن الخطوات المعروفة التي اتبعها هتلر نحو شرق أوروبا وسعيه لتجسيد ما عرف بالبراغماتية لم يكن من اختراعه الخاص، وإنما من وحي التاريخ الألماني ونتاج له.

ب. أوروبا الوسطى والبلقان هي مفتاح العالم.

ت. النصر في الحروب هو تحصيل حاصل نتيجة للفروقات الإيجابية الحاصلة في الرجال والمال والأراضي لصالح أحد أطرافها.

2. النظرية الاحتمالية لبول فيدال دو لابلاش: يتجه دي لابلاش هو الآخر اتجاها مغايرا لاتجاه المدرسة الألمانية في تفسيره الجيوبوليتيكي للأسباب الكامنة وراء اندفاع الدول إلى التوسع، وبالتالي النزاع. إذ كان يرى أن راتزل وأتباعه يبالغون بشكل واضح في تقييم العامل الطبيعي، إد يعدونه عاملا محددا، ذلك أن الإنسان في رأي دي لابلاش يعد بدوره عاملا جغرافيا مهما يتميز بالمبادرة، فهو ليس جزءا من الديكور، بل هو الممثل الأهم في المسرحية. وهذا ما دفع ي لابلاش إلى طرح نظرية جيوبوليتيكية خاصة هي "الاحتمالية"، حيث يرى أن للتاريخ السياسي أفقان مكاني "جغرافي" وزماني "تاريخي"، وينعكس العامل الجغرافي في الوسط المحيط أما التاريخي فينعكس في الإنسان نفسه "صاحب المبادرة".

فالألمان في رأيه أخطأوا في اعتبار الحيز المكاني–اليابسة– عاملا حاسما في سلوك الدولة التوسعي، أما هو فيقترح النظر إلى الوضع المكاني الجغرافي على أنه "احتمال" أو "امكانية" يمكن أن تفعل لتغذوا عاملا سياسيا حقيقيا، ويمكن أن لا تفعل، وهذا ما يرتبط إلى حد بعيد بالعامل الذاتي، بالإنسان ساكن دلك المكان.

والاحتمالية عند دي لابلاش هي تصحيح للحتمية الجغرافية الصارمة لدى الجيوبوليتيك الألمان حصوصا، إذ يرى دي لابلاش أن العامل الجغرافي للدولة يكفي بمفرده لتفسير سلوكها الخارجي، إنما يجب أن يضاف إليه دور الإنسان —صانع القرار– الذي يجعل من العامل الجغرافي فعالا أو غير ذلك.

3. نظرية الجيوبوليتيك المحلي لإيف لاكوست: يعتبر من الجغرافيين المعاصرين، له العديد من المؤلفات حول الجيوسياسية، والتي يعتبرها ذلك العلم الذي يدرس التعارض والتنافس القائم بين القوى على مستوى الأقاليم الجغرافية. فالجيوسياسية حسبه هي الميدان الذي يدرس العلاقات القائمة بين الفضاء والسياسة، وهذا عبر الإجابة على مجموعة من التساؤلات منها: كيف وبأي طريقة تؤثر الحقائق الجغرافية على التنظيمات الاجتماعية والخيارات السياسية، وكيف يغير الإنسان هذه الحقائق أو يؤثر عليها لبلوغ غايته وتطبيق سياسته.

من خلال التعريف الذي قدمه للجيوسياسية، فإنه ينظر للجيوسياسية على أنها مقاربة معرفية موضوعها يتمثل في دراسة التعارض القائم على الأقاليم وكذا تداعيات هذه على تصورات وآراء الأفراد. فلاكوست يعتبر ان المتغيرات الأساسية في الجيوسياسية تتمثل في **مجمل التصورات** التي يحملها البشر حول تاريخهم ومستقبلهم وإسقاط هذه الإدراكات على إقليم محدد، وأن اختلاف هذه التصورات يؤدي إلى ميلاد علاقات قوة بين القوى.

رابعا: المدرسة الروسية. من الواضح أنه لم يكن لدى روسيا تقاليد جيوبوليتيكية كماهو الحال بالنسبة لألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية او حتى فرنسا. وأن الأمر لا يعدو مجرد رد فعل كما كان الحال عليه بالنسبة للمدرسة الفرنسية، حيث عرفت روسيا طوال تاريخها مواجهة عنيفة ومستمرة مع جوار معاد لها خاصة من جهة الغرب.

وقد عملت السياسات التوسعية والرغبة في الهيمنة وثقل الخلافات العقائدية، جميعها على دفع روسيا إلى عزلة في إقليم مغلق ما انفكت تعمل على الخروج منه وفرض وجودها كطرف قوي في اللعبة الجيوبوليتيكة، وبالأخص في قسمها الأوربي في المرحلة الأولى لتتسع بعد ذلك إلى المستوى العالمي.

فابتداء من 1730، ومن أجل إن إثبات الانتماء الاوروبي لروسيا طور الجغرافي الروسي فيسيلي تاتيتشيف لأول مرة فكرة أن أوروبا تتوقف عند جبال الأورال وآسيا تبدأ بعدها. ولكن بعد الحملة الفرنسية البريطانية على شبه جزيرة القرم، وفي أعقاب توحيد ألمانيا أصبح أنصار العرق السلافي أهم محفز ودافع للشعور القومي في روسيا ينظرون إلى هذه الأحداث وتسلسلها باعتبارها تهديدا لروسيا من قبل أوروبا التي كانت تمثل دائما تحديا بالنسبة لها، ومن أهم من آمنوا بهذا الطرح ودافعوا عنه بشدة نيكولاي دانيلفسكي الذي دعا لإقامة اتحاد عموم السلاف حتى يلعب دورا موازنا ومواجها لذلك الدور الذي بدأ يلعبه بشكل واضح الألمان من خلال دعوتهم إلى تأسيس منطقة نفوذ جرمانية.

1. نيكولاي دانيلفسيكي: يعتقد دانيلفسيكي أن الخط الفاصل بين روسيا والغرب الأوروبي لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه من فعل الجغرافيا، حيث لا عقبة طبيعية تفصل اوروبا عن روسيا أو حتى عن سيبيريا. كما ان جبال الأورال ليست حاجزا، وأن تقسيم أوراسيا هو امر مصطنع لا وجود له. ومن ثم فإنه إذا كان هذا التقسيم قائما، على الرغم من هذه الاستمرارية الجغرافية الملحوظة، فإن ذلك يرجع في نظره إلى أن ما يفصل روسيا عن أوروبا ليس إلا لأن كلاهما يختلفان ثقافيا وتاريخيا بشكل واضح ولا قاسم مشترك بينهما. وحاول دانيلفيسكي بصعوبة تفسير عداء الدول الأوربية ضد بلاده والخوف الذي يطغى على نظرتهم إليها، عندما رأى أن الصراع بين أوروبا وآسيا غير موجود، بل هو أسطورة تاريخية نجمت عن التنافس بين روسيا وأوروبا. هذه الأخيرة في نظره لم تستطع التفريق بين السياسات التوسعية الأوربية والسياسات الروسية، بل وحاولت أن تسقطها بشكل قسري على روسيا، وبالتالي فهو يعتبر أنه من غير العدل مقارنة تشكيل الإمبراطورية الروسية بالطريقة التي تشكلت بها الامبراطوريات الإسبانية، البريطانية أو الفرنسية.

2. نظرية القوة الجوية لألكسندر دي سيفرسكي: يعود له الفضل في صياغة نظرية جديدة في الجيوبوليتيك، تجعل من القوة الجوية محور اهتمامها الأول. وتستمد هذه النظرية قوتها من افتراض

مفاده أن السيطرة على الجو تتيح إمكانية عالية للسيطرة على الأرض. وأهم ما جاءت في بحث له يحمل عنوان القوة الجوية مفتاح البقاء سنة 1950.

وتشمل السيادة الجوية الأمريكية حسبه على كل من الأمريكيتين، بينما تغطي منطقة السيادة الجوية السوفيتية جنوب وجنوب شرق آسيا وإفريقيا جنوب الصحراء، في حين أن منطقتي النفوذ الجوي تلتقيان وتتصادمان في مناطق أخرى هي أوروبا الغربية، وشمال إفريقيا والشرق الأوسط.

ومنطقة تداخل السيادتين الجويتين البرية والبحرية تسمفي عرف سفرسكي "منطقة المصير'، فهي منطقة الحسم في أي معركة بين القوتين، كما أنها المناطق الجيواستراتيجية الأهم في العالم، وقد عبر سفرسكي عن ذلك بمبدئه القائل:

- من يملك السيادة الجوية، يستطيع أن يسيطر على مناطق تداخل النفوذ الجوي.
- ومن يسيطر على مناطق تداخل النفوذ الجوي، يصبح بيده مصير العالم

3. ألكسندر دوغين: يعود ظهور الجيوبوليتيك في الخطاب العلمي والسياسي الروسي بشكل واضح إلى رجل واحد، وهو ألكسندر دوغين، الذي فرض نفسه خلفا للمدرسة الأوروآسيوية، وبخاصة بعد إصداره لكتابه "أسس الجغرافيا السياسية".

إذا كانت الشيوعية قد حاربت مفهوم الجيوبوليتيك طوال سنوات الحرب الباردة، كون الاتحاد السوفياتي فضل الاعتماد على فكرة أن الايديولوجية هي التي توجه العلاقات الدولية، فإنه وبانهيار الاتحاد السوفياتي ووعي الكثير من الجغرافيين والسياسيين الروس بأن مصير روسيا هو محصلة لموقعها الجغرافي المغلق بين الغرب ورسيا، تم العودة إلى الاهتمام بالجيوبوليتيك للأسباب التالية:

- استعادة مناطق النفوذ السوفياتية السابقة (أوسيتيا، أبخازيا، أوكرانيا،...)
- منع تقدم نفوذ الدول الغربية نحو آسيا الوسطى(الحرب الجورجية).
- إحياء الأحلاف القديمة وإقامة أحلاف أخرى جديدة(منظمة شنغهاي)
- البدء في إزعاج الدول الغربية وعرقلة السياسات التي تتبعها في بعض المناطق وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط وأوروبا الشرقية.

➢ المناداة بعالم متعدد الأقطاب، والقضاء على الهيمنة أحادية الجانب الأمريكية.

وعلى العموم يقوم الفكر الأوراسي لأكسندر دوغين على تقسيم العالم إلى عدة موجات من الحضارات المؤسسة على الأديان، متخذا من الحضارة كموضوع لتحليلاته. ويعتقد دوغين أن الحضارة الأورآسيوية (الامبراطورية القائمة على الأرتوذوكسية) تلعب الدور الرئيسي في الصراع بين الحضارتين القارية والبحرية، وهذا الصراع شبيه بالصراع بين الخير والشر، ويتجسد أساسا في التناقض والتعارض بين القارات الأمريكية والأوراسية، وهو ما يفسر حسبه لماذا العالم الغربي يسعى بكل الوسائل إلى تدمير روسيا /أوراسيا.

وصف دوغين هزيمة الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة بأنها انتصار لحضارة البحر على حضارة اليابسة من وجهة نظر جيوبوليتيكية، فروسيا التي تمثل مساحة كبيرة من خريطة العالم لم تكن قادرة على النفاذ إلى البحار الدولية، وهي نقطة ضعف كبيرة تجعل روسيا في شبه حصار، وهذا ما حدث في مواجهة بريطانيا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين، فالحرب الأولى التي دارت بين انجلترا وروسيا القيصرية انتهت بهزيمة روسيا القيصرية، والحرب الثانية التي دارت بين المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي السابق انتهت كذلك بانتصار الولايات المتحدة الأمريكية، وفي كلا الانتصارين لم تكن الايديولوجيا هي محرك الصراع بل كانت الجغرافيا والمصالح التي تترتب فوق أرضية الجغرافيا.

إن الأوراسية الراديكالية لدوغين جعلته يرفض رفضا قاطعا الحضارة الغربية، حيث أشار عام2014 إلى أن حقوق الإنسان والديمقراطية الليبرالية، التحرير الاقتصادي، والرأسمالية ليست سوى قيم غربية وليست قيم عالمية، فالإدارة الغربية تسعى لفرض قيمها واعتبرها اعتداء يجب أن تواجهه روسيا، فالرهان إذن هو حماية من الحضارة الغربية من خلال الدفاع عن القيم التقليدية. ومن وجهة النظر هذه سمح ضم شبه جزيرة القرم عام 2014 بروسيا أن تضع حدا للاستعمار الروسي لجزئه الخارجي القريب، حيث كتب في مقاله "الجيوبوليتيك الأوراسية" أن مهمة روسيا هي توحيد جميع الدول الأوراسية، وفي النهاية جميع دول العالم في كتلة جيوسياسية واحدة.

خامسا: التصورات الجيوبوليتيكية الصينية. ارتبطت الممارسة الجيوسياسية للصين بالموروث الثقافي التاريخي الذي امتزجت فيه الأفكار الكونفوشيوسية القديمة التي تعتقد ان الصين هي مركز العالم والفلسفة الشيوعية التي جاءت لتعطي الصين بعدا عالميا وإنسانيا من خلال التضامن والعلاقات الوطيدة مع دول العالم الثالث بشكل بارز.

وتتلخص نظرية العوالم الثلاث التي مثلت مركز الفكر الجيوسياسي الصيني على أن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي يشكلان العالم الأول، والقوى المتوسطة مثل اليابان واوروبا وكندا تشكل العالم الثاني، بينما تشكل الصين وبقية دول العالم، العالم الثالث، وقد ميزت الصين تبعا لهذا التقسيم بين عدوين رئيسيين هما القوتين الإمبرياليتين وحلفائهما المحتملين، وهذا في ظل دورها الضمني كقائد للعالم الثالث، وهو ما نتج عنه في تلك الفترة هندسة الفضاء العالمي المقسوم إلى مناطق محددة.